سليم بركات

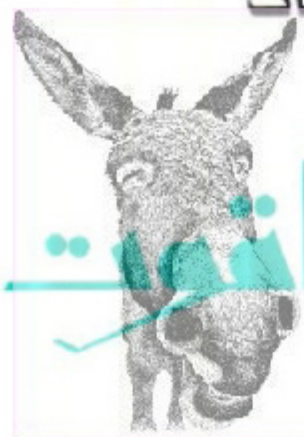

كيش الياتت

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

دار النهار

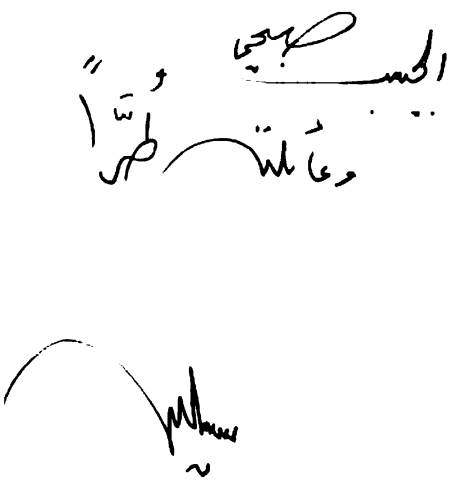

طيش الياقوت

سليم بركات

طيش الياقوت

© دار النهار للنشر ش م ل، بيروت ١٩٩٦
جميع الحقوق محفوظة

شارع روما، بناية فارس
هاتف ٣٥٣٦٩٩، ٣٤٧١٧٦
تلكس NHRPS ٢٠٤١٧ LE

تصانيفُ النَّهْب

بأيدٍ رُخامٍ يمسِّدُ الغيبُ شهواتِهِ،
والمكانُ يطحنُ المكانَ،
لتستوليَ الحقيقةُ، نَهْباً، على إرثها أيها الموت،
يا المـآتُ ذو الصِّحـاف المُثَلَّمةِ كأنْ عضَّها الأزلُ فأدمى الأبـديةَ. ويا الذي ألَمُكَ ميزانٌ، وعَدَمُك نزيف الخوخ يتحرَّى الطبائعَ بحصافةِ المهرِّج الذي من نباتٍ، ايها الموت؛
يا الحاذقُ كوحشةٍ،
أيها الإرثُ النورانيُّ للنسيان النورانيّ، ستتبعني مُذْ ساقَكَ اليقينُ في يأسِـكَ إليَّ، وحـرَّضني الأملُ ـ بكلماتِ النهاية ـ أن أعتذر إليك عن جُرْحٍ خصَّكَ به الموتُ أيها الموت.

أكلَّما التقينا، جاريَ أيها الموت، في المُنْعَطَف الإسفلتي
حيَّيتني ببـوق شاحنتـك الصغيرة؟ أكلَّمـا سهـوتُ عن الكلماتِ
اطلقتَ سراحَ الحبر ليستقصيَ الأبديَّ، كأجيرٍ، في الساحة هناك،
حيث نجادل النساء اللواتي يتقاسمن سلال الهندباء مع الملائكةِ؟

صمتُكَ نقيٌّ، لكنك شريك ثرثار أيها الموت،
وكراسيُّكَ الكثيرة، التي في المهرجان، مصبوغةٌ بدِهانٍ
يتقشَّرُ،

فلا تغادرِ المكانَ. عينايَ عليك.

لا تتثاءب منتحلاً نعاسَ الصباح، لانني سَهَرُك المطبقُ على الأبديِّ.

وخفِّضْ من صوتـك حين تحدِّثُ الغدَ، لأن جيراننا على قَلَقٍ، والحدائق على قَلَقٍ، والنهارُ الممسوسُ موشك أن ترتجف يداه بالكؤوسِ الزجاجِ التي ينقلها إلى الغاضبين.

سألتني أيهـا المـوتُ، من قبلُ، أن أريكَ المعاطفَ التي خلَّفها الآباءُ اللامعدودون في الخزانة. وجادلتني طويلاً في الحنين الـذي يتأمّل الحدائقَ من وراء نقابه الكتّانيِّ. ثُمَّ حمَّلْتني ـ أيها

الموت ـ عَتَبَك من تردُّدي في مفاتحةِ المكان بعزلةِ الوقت.

حين تفتعل صخَبَك لا أسدُّ أذني، بل أنقر بأصابعي نقراً خفيفاً على خشب المنضدة، هامساً إليَّ: ها هو القَلِقُ يلتمس التفاتاً إلى قَلَقِهِ من الضجريْنَ وأيامهم.

حين تفتعل صخبَكَ في الممرِّ ذي الأعمدة الذهبية ـ صافقاً من حولك النوافذ والأبواب، وأنت تُخَلِّعُ الستائر، وترتطم بالكتب المنضَّدة على رفٍّ من رفوف الشهوة ـ لا أسدُّ أذني، بل أريك طنافسَ تليقُ بالعبث، وثُريات من النحاس تُجَلْجِلُ إن اقْتُلِعتْ؛ أريك المرآةَ المؤطّرة التي ستتمزّقُ فيها لتكونَ هكذا، جريحاً، تلتمس ضربةَ الهول التي تُحْييك.

عَتَـلاتُكَ تدورُ مرتكزةً ـ في صريرها ـ على الحنين، أيها الموت. سلاسلُكَ رطبةٌ، ورهانُك هو التجديف حين تدور بَكَرَتُكَ بمُسنَّناتها الخمسة، ويتهدَّل رقَّاصُكَ المكسور، متعرّياً من نشوئك النَّجميَّ لتغدوَ شريكي، الذي يَكيْلُ معي ـ في الميزان ذاته ـ مجرَّةَ الدَّم ويقطينَه المُعَرِّش.

ولك، جاريَ أيها الموت، إطراقتُك النبيلة التي لا تُخفى، كَمُـرْشِـدٍ يكتمُ الأمـلَ، ويبـوح باستعـاراتـه المُبتلَّة في قواريرها الزرقاء. لك علْمُكَ الذي أطبقْتَ عليه دَفَّتَي الحياة ذاتِ الورق الصقيل. وحنينُـكَ؟ أيُّ وصْفٍ إلى حنينـكَ؟ أمَّهـاتٌ كالنـدى يدحرجن، في المياه، حنينَكَ إليك، كأنك لا تتفكَّر إلّا في الذي

يتفكّـر فيك؛ كأنـك تتـأمّل البذخَ الأعمَّ للمغيب، وتصغي إلى الجماد يُنْشِدُكَ ما تتلكّأُ النعمةُ، من ارتباكها، في إنشادِهِ.

مضخّـاتُ مياهٍ، وبستـانيون، حولـك أيهـا الموت. بخارٌ وأنـابيق. عضـلٌ كثير وقـطن كثير. أشياءُ.. أشياء أيها الموت، والطنينُ الذي يرجُّ زجاجَ النافذة هو الأبديةُ تهيب بالمسَّاحْينَ أن يُنجزوا ما تبقّى من تقدير المسافة إلى ماضيك. والمسَّاحون، ذوو القبعـات القشّ، يحصـرونك ـ قليلاً قليلاً ـ في ثُلث المشهد، بنـواظيرهم المرتكزة على سيقانها الخشبية؛ بمقاييسهم التي من قماشٍ مطليٍّ بالشمع؛ بأقلامهم الرَّصاصِ التي يستلُّونها من وراء آذانهم وهم يدخنون لفافاتٍ تضيءُ بجمرها الخافتِ أقدارَ المكانِ

وموازينَهُ المكسورة.

هيَ الحقيقةُ ـ التي تتعافى جُرْحاً جُرْحاً في فراشك المحترق ـ تُعيرُك فرشاةَ الدَّهَّان وسطْلَهُ المعدنيَّ، لتُعَمِّمَ اللونَ كيقينٍ، أيها الموت.

فاتْبَعْني: لدينا إرثٌ من القصور التي تنتظرُ الدَّهَّانين. ولا تدمدِمْ دَمْدَمتك تلك لئلاّ نخسرَ الصفقةَ المعقودةَ بيننا وبين الأزل. كنْ هادئاً. كُنْ كسولاً لأنني أراك امتلأتَ؛ أرى كتفيك ممتلئتين، وكذلك ربْلَتَيْ ساقَيْكَ، وأنامِلَك التي يعروها خمولُ البطران. أيْ. أراك اكتنزتَ، ولشحمك ارتجاجٌ إذا مَسَّكَ الريش الذي لا تراه.

كن رزيناً كما يليق بمُتْرَفٍ أن يكون، وأنت تقسِّمُ النهارَ

حصصاً كالذهب على المتاهاتِ. واتبعني بذاكرتك الحدَّادِ، بالسُّعاة القنّاصين يضيِّقون بين أجفانهم في مسافة الجُرْفِ الأزليِّ المُشرف على الهاوية ذاتها، التي يَعْرَقُ ظلامُها حياءً حين ينقل اللهُ القيامةَ فيها من لوحٍ إلى لوح.

ولا تَبْتَذلْ مَظْهرك: لك زهدُ الرمادِ ـ أراكَ. حياؤك إسكافيٌّ، وحزامك من إحليل الثور. أما تبغك الذي يتأجج قوياً فهو تبغ البنّائين، اولئك الذين يبسطون أمامك تخطيطَهم المُدَوَّن بحبرٍ رطب، وهم يتنشَّقون، في مداولاتهم الصارمة، ضياءَ العبث الهندسيِّ وأرقامَهُ التي لها صريفُ الأسنان.

ولا ترفعَنْ عويلَ بوق شاحنتك الصغيرة عالياً، أيها الموت،

حين تُحيِّي الجمـادَ المنتظرَ على قارعة الشّكْلِ : أطفالُ جيراننا نائمون، مبتسمين للحلم الذي يشهدُ فيه أَمَلُكَ الأبكم لليأس في اعتراف اليأسِ بالأملِ إلى لا نهايةٍ

إلى لا نهايةٍ
إلى لا نهايةٍ
إلى لا بدايةٍ.

أنت مثلي تشهدُ خِتان الفجر، ومشاجرات الضوء، وكذلك النِّـزالَ الصبـاحيَّ بين المكان وحماقاته. أنتَ ـ كفراغ رَضيٍّ له ثرثراتُ الخوخ ـ لا تُريك الحياةُ ارتباكَها، ولا تُريْها الفضيحةَ أكْمَلَ في الأنين.

حزيناً تتذكَّر، أيها الموت، طفولتَك التي لبسناها كأقنعة في الأعياد؛ حزيناً تتذكَّر حنينَك المجروحَ بأعمارنا؛ حزيناً تتقدَّم إلى نَفْسك، وحيداً، باردَ القدمين في حذائك المثقوب. والمساءُ المرير، الذي يكلِّمك، ينسى مراراتِهِ إذ يسألك: «أين تمضي، بعد هذا، أيها الموت؟».

شفقةُ العدم عليك ايها الموت؛ شفقةُ المنسيّينَ عليك يعودون إلى الحياة بفكاهاتهم.

شفقةُ الفكاهة عليك وهي ترمي بالأقدار إلى سريرك المُمزَّق وقد تفلَّعَ حَشْوُهُ القطنُ وقضبانُهُ النحاسُ. وفي توقك إلى النهاية تختطفُك النهايةُ إليك، لا إليها. فيا ابن الفراغ الذي يتقصَّى

بأمومته نهارَك التائهَ، أيها الموت: رَكْلَةٌ تفتحُ البابَ؛ رَكْلَةٌ تفتح الأبديةَ على فجورها؛

رَكْلَةٌ تفتح بابَ الفردوس في ثغرة من سياجك المصنوع من قصب الذُّرة؛

رَكْلَةٌ خفيفةٌ تدحرج الكونَ إلى إعجازه.

فاحذرْ مثلي ـ أيها الموت ـ غَدْرَ الشجرات، وغدرَ التراب الذي لا يقول حكمةَ الذّهب. أما الفَناء، الذي يبقى جالساً بعد خروج زائريه، فهو يتهكّم بلغة لا يُتقنها: إنه فَناءُ كأْجرٍ لم يُسَدَّد بعدُ. والعدم الذي كلقاءٍ أوَّلَ، أو كنعمة تتأمّل حنينَها، لا يدخل المكانَ، بل يبقى منتظراً من يُحضر إليه خُفّيه، وعكّازَه النورانيَّ،

كي يحرّر الأبديةَ من كهولتها.

أتصغي إليَّ؟ أراك سهـوتَ، أيهـا الموت، وأنت تُحصي كتـائب من أشباحٍ تُمهِّد الوقتَ دفتراً دفتراً لانتصار الحدائق؛ ـ أشبـاحٍ كَلَوعةٍ تصعد المدرج إلى الحقيقة، ثقيلةٍ في حديدها، وخُوَذها، لتُسَلِّم الباشقَ إلى اليقين.

أتصغي إليَّ أمْ إلى حياةٍ تسهر، أنتَ، على كنوزها، أيها المـوت؟ تعالَ ندخل أسواقَ الجزّارين الذين يستميلون الحكمةَ إلى فكاهاتهم، رافعين رؤوس الأغنام وأحشاءَها إلى الموازين؛ وقـد يقشّـرون أظلافَ الماعز، أو يهوون بالسواطير على أضلاع الـثيران. تعـالَ، إنهم يُصنّفـون العضـلَ، ويرقّقـون الشَّحم

كالمجازات، كأنّما يعرفون أنّ المَضْغَ الذي يُقرْقعُ إنما هو من فم الأرض تمضغُ القيامةَ قبل نومها.

وتحسَّسْ مِطواتَك التي كنهارٍ في جيبك، أيها الموت، فقد يحتجزك الحمقى في الأسواق المسقوفة بقرون الثيران، ليسْتنفِدُوك قبل أن يموتوا أيها الموت، أو يسهروا معك ـ في الحُمّى التي تفتدي نَفْسها بالصرخة الخفيضة إذْ يُخْتَتَنُ الأبدُ ـ كي يُضلّلوا كوابيسَهم. وإنْ جاورك المساءُ المكاريُّ اسأَلْهُ الفديةَ التي هي عبورُك، مُثَلَّماً، إلى الأكيد.

آهِ، كم تتبرَّجُ بالفكاهاتِ التي أسردُها أيها الموت؛ كم تتبرَّج بيقينك وأنت تسردُ الفكاهةَ على الحياة. رسولُك المساءُ إلى

جنـائن النهـار المنكـوبـة، وأختـامُك أختامُ الأنين أيها الموت. وشهواتُك؟ عُدَّها: إنها تتفجّر كحبوب الذُّرةِ في المِقلاة.

ما من مشهـدٍ يعبُرك قَلِقاً أيها الموت، كأنما وحدَكَ ـ في المشهـد ـ قَلَقُ المكـانِ تخرجُ عليه جهاتُهُ. ومفاتيحُكَ؟ يا لها. تتـدلّى من السلسلة الرقيقة التي يتدلى منها الأفقُ. وهي، على أيٍّ، سلسلة من الصّنف ذاته الذي تتدلّى منها ساعاتُ الحَسَبَة، ومفـاتيحُ الصَّيْرَفيين، والأقـدارُ المـطلَيَّةُ بالنيكـل على صداري البـائعين، هؤلاء، وراء آلاتهم الحـاسبة كملائكةٍ حوصِرَتْ في الحديد، وهم يُخْرجون الحقيقةَ عن طَوْرها بابتساماتهم المُلْغِزة.

صفـاؤك الآن، قرب سياج البيت، صفـاءُ الخسـارة أيهـا

المـوت. ورِهـانُـك الـرابحُ رهانُ الحُمّى التي تشقّق التينَ، في الظهيرات، للعصافير. وأنتَ، كورّاق حصيفٍ، تموِّه الحِبرَ على الحـروف بحروبك التي تحشد لها أحلافَ العنب، هنا، حيث ثغور الفاكهة هي الثغور التي يتسلّل منها العدّاؤون بأقدار الفاكهة؛

حيث حَنَقُ الغبار يبلّل المساءَ العاقل؛

حيث اليقين الماكر، والعصافير المرتطمة بذهول الحدائق؛

حيث قطيعةُ الليل بين الألم والحمّى؛

حيث المجاذيف، والأقنعة الرحيمة كأنما فاكهةٌ تحتالُ على الفاكهة؛

حيث الأملُ يغتصبُ شقيقاته على السرير ذي القوائم التسع؛

حيث الدَّهاءُ الذي من وردٍ يشرفُ على خسائر الحقول؛
حيث القلاقِلُ الكبيرة هي قلاقل الصَّعتر،
والشَّغبُ الكبير هو شَغَبُ النعناع؛
حيث الشَّكُّ ـ ضاحكاً ـ يلقِّمُ العذوبةَ، بيديه، حساءَ الآلهة.

والأرقامُ أرقامُك أيها الموت، تتراءى، نديَّةً، للممحاةِ العذبةِ في رِقَّتها.

هذا هو نَسْجُ الليل وأنينُهُ قربَ سريرك، أيها الموت.

تعال، إذاً. وصل الطهاةُ وأنت ما تزال في حيرتك الرقيقة ذاتها، وراء سياجٍ يتسلّقه الضوءُ الذي يُغمى عليه من تحرُّشات الورد. تعال: مُدَّتِ المائدةُ، ورُصَّتِ الملاعق الكثيرة، وفي الصَّحْفَةِ الواحدة تجاورت الحقيقة والبصل، والكسادُ المُمَلَّحُ لليقين، وخرائبُ النعمة ذات الضَّوع الذي للكرفس، واليقينُ المغامرُ، والمساءُ ذو الحراشف. فيما تنتظر الأصنامُ الصغيرةُ، بخزفها المحروقِ كرؤيا الضَّبِّ، شعاعاتِكَ المُخْصِبَةَ، ومديحَكَ الأشقرَ كروحِ كلبةٍ.

المرئيُّ قُرْعَةٌ لا تجد اسمَها في حروفك. وفي كل حركةٍ

تُحطِّمُ الفجرَ الذي لا يسترسلُ إلّا غريقاً أعمى. كأنك تحتكم ـ بالضربة الدفينة للحقيقة، التي ترفع أعضاءَك الدفينةَ في ظلامها ـ إلى خساراتك الرابحة.

آه، للموج حنينُهُ إلى سَكينة المياه، وللسَّكينة حنينُها إليك إذْ تمضي ـ أيها الموت ـ إلى الغَلَبةِ بأنصارك الصاخبين. تعال: تماثيلُ المساء الكثيرة، التي تذوب رويداً رويداً في ظلامها، تُريْك الغُـرَفَ المضـاءةَ في فراغها، وتُذَرْذِرُ عليك، كَرَشَاشِ الماء، محاوراتٍ تَنْسى قائليْها الموتى. وترفَّقْ بيديك الرطبتين كممحاة أيها الموت، فلا تَشُدَّنَّ النسيانَ من قميصه إلى المائدة: يكفيك قلبُك الذي من جُسُورٍ ترتفع بأجنحة المياه؛ يكفيك قلبك المتاهُ

لا يهتدي منه إليك إلّا العبثُ قابضاً على حيائِه.

صواعق تتسلّق نَفْسها إليك. بروقٌ تتسلّق الوردَ إليك. الأبديةُ المُخْتَطَفَةُ من حنينها تتسلّق الفكاهةَ إليك. المسرعون من يقين إلى يقين ـ وهم يتعثّرون بالقيامة في سُكْرِهم ـ يرونَك في الظلال كلها؛ في الظلال القوية للكروم حيث تتخاطفُك ملائكةٌ من العناقيد كفَناءٍ مُسْكِرٍ. ورهْبَةُ الغد، الذي عليه بعضُ غبارك، هي رَهْبةُ الغد في انشغاله بما ليس فيه.

أنتَ لا تنام، فَلِمَ استراقُك السَّمْعَ على النوم، أيها الموت؟ تتثاءبُ فأبتسمُ لك ابتسامةَ العارف: «يا لبناطيلك المضحكة. يا لعينيك المغرورقتين بحبرٍ يطحن المفاتيحَ». لكنك تسرق خُفّي

النـوم اللذيْنِ يتـركهمـا على العتبـة، في دخوله عليك، مُستأذِناً حُلْمَك اليقظان، حاملاً مصابيحه التي تنتظر الوقتَ بمحاريثها.

قطيعُـك قطيعُ الغضب أيها الموت. هروبُك صاخبٌ في كلام يُنْسَى أيها الموت. شَفَقُ النعمة عليك؛ شَفَقُ النعمة الذي تكسره شجرات الأكاسيا العالية، أيها الموت. وأنت في المُهْمَل، الذي تتعثّر الأرضُ بجماله، أيها الموت؛ في خطوة الظلام المنسية على عتبـة الفجـر؛ في الفجر الذي لم يستفقْ بعدُ؛ في اليقظة الكسولة للكمال الكسول، هناك، حيث تُلقي بمتاعك الثقيل على القارعة، وتنسلُّ إلى الكمائن أيها الموت. وبُستانيٌّ أنت، غاضبٌ من أجْرِك، تُبيْحُ للورد أن يسرق من الموتى رقادهم، أيها الموت.

ولا تحمـل أضـاميم الـزَّبـد إلى أيٍّ، ولا تتنفَّس كمـا يتنفَّس المُشيِّعـون. وتغمض عينيك حين تسمـع ضربـةَ المعـول التي تتقـاسمهـا الحقيقـةُ مع الغبـار، أيهـا المـوت. حروبُـك تُؤكـل كالفاكهة؛ حروبُك العظامُ والعنبُ؛ حروبُك الرهيفةُ من حماقاتٍ ينسجُها الزّهر في مرآته أيها الموت، وغَدُك غدٌ يستأجر الحقيقةَ كحمَّـالٍ لأمتعـة الغيب. آه يبكي الحديدُ بين يديك بعينين من ذهبٍ. ونهارُك ساهر على شمسه أيها الموت. يقظتُك نائمة في دفْئِهـا، ووداعٌ أكمـلُ يضلّلُ أعضاءَك بعضها عن بعض، ويُقيم معك، في الوحدة ذاتها، كضيفٍ دمثٍ، أيها الموت. يحْسبُك الـدّرَّاق من سُكَّره، والضوءُ من حِيَلِ الضوء أيها الموت. وأنتَ

بسُحُبٍ تعتنقُ مذاهبَ الجهـات كلها، دافعاً بالمجرّات كأسرى ترسف في أغلالها الأمينة، أيها الموت. والنواعير كلُّها لك. النعيم المُـرْبِـكُ لك. بروقُ الصباح المُشْبَعةُ برائحة الشاي لك. ولكَ الزَّهر المُمْتَحَنُ، والقوافل العابرة من كردستان الى المديح. لك خزائن الملح، والأَهـراءات المنتصبـة على تخـوم القيامة. لك الحجر الذي يفطمه الجبلُ، وجزيةُ النقائض. لك ممحاةُ الزّنبق تمحـو الـرائحـةَ في سطور السَّـرَّاقين، والمساءُ المتبرِّج بأصباغ الريح. لك قلق الفجر وهو يروي الحكايةَ بضيائه المُتلعْثِم؛ قلقُ الحكاية وهي تروي الفجرَ ذا الجبين المعصوب من نوبة الحمّى. وتقول، بعد هذا، لنَفْسِك ما تُسِرُّهُ إلى نَفْسِك، وللحياة ما يُشْغِلها

بجواميسها القوية، وعذابها القويِّ كثِقَةٍ.

على رَسْلك، أيها الموت:
من شاهقٍ تُذَرْذِرُ الثلوجُ نيرانَها على المرايا،
ويجازفُ النهارُ بالليل الذي يزوِّرُ الأختامَ.
والمكـانُ لعبـةٌ في جِدالـك؛ المكـان يتسـوّل من يديكَ الحقيقةَ فكاهةً فكاهةً. والرياح تتلقَّفُ كُراتِك المرمريةَ بأيديها التي من أَسْـرٍ؛ بأيدي ابتكـارهـا وهي المشغولة بالذي يجعلُها رياحاً تتلقَّفُ ذاتَها.
أوقتُك غمامٌ، أيها الموت؟ حَسْبُك تطوّقُ بكسلِك المساءَ

الذي يحلم حُلْمَهُ المُغْلَق على نهارٍ مُغْلَق على نهارٍ مُغْلَق على مساءٍ مُغْلَق على الضياء ينشجُ نشيجَ الريح إذْ تضيق الريحُ ذَرْعاً بالهبوب الذي هي فيهِ.

وماكرٌ هذا الأجل الذي تَشْحَذُه بالمبراة، لا يُنجِزُ القرائنَ الناقصةَ، ولا يستوفي ـ في مشاداته الكثيرة ـ شَرْطَهُ الصاخبَ، كي يُبَلْبِلَ الحياةَ بأحاجيه. لكنه ماكرٌ ـ هذا الأجلُ أيها الموت كفكرةٍ يتمادى أنينُها لينتَحِبَ الوقتُ كما تنتحبُ الحدائقُ في اعتزالها.

تشيخُ طويلاً أيها الموت فتنسى أنك موتٌ ينساهُ الموتى. ومجـازاتُـك من صوفٍ أغبـرَ أو من قطن مبلول، أيهـا الموت. مجرّاتُك منكوبةٌ. اسمُك منكوبٌ. وحِبرُك الليليّ، الذي تدوِّن به

فراديسَ الأكيدِ، يفتحُ الممرّات ـ في السطور ـ لشموس الموتى.

يا لسريرك الذي تمسِّد الحروبُ، بأيديها القِطانيَّة، ملاءتَهُ القصيرة؛ يا للحروب تطرق عليك البابَ في خجلٍ، أيها الموت، لتُشْغِلَكَ كأنثى بحديثِ الذَّكَر؛ يا لهِباتِك التي لا تقدِّمها مرتين؛ يا لدويِّ السَّطر المحمولِ على يديك وهو يمزِّقُ الكتابة!

رمادٌ رخيمٌ يُلْهم الحناجرَ نداءَها،

والكمـالُ الأخرقُ ـ وسيْطُنا، يتجوّل بكلابه صباحاً لتتبوَّل على ساقِ شجرة الكينا، أيها الموت.

يُسْـرُوعُـك يُسْـرُوعُ بيانٍ. هواؤك أحـدبُ. والحـلاّقون، حولـك، يجـزُّونَ الشّفق بمقصّات المياه، أو يشذِّبون الحدائقَ كاللِّحى، أيها الموت، وهـم ينهرون ـ في لُطْفٍ ـ شهواتِ الغامضِ المربوطةَ إلى كراسيِّهم إذْ تهرُّ ككلابٍ سلوقيةٍ.

ألهذا أنتَ غير أكيدٍ، أيها الموت؟
ألهذا أنت يائسٌ كحديقة تنصب كمائنَ من وردٍ، وتختزلُ الأرقامَ في دفتر الهواءِ الصَّيرفيِّ؟

كلُّ قيثارة تشدّها اليك تشدُّها في الكمين،

حيث الأغاني توزّع الأسيجةَ على مُعَسْكراتها،

والمكسورون في أشكالهم، هؤلاء، الملتحمون كإسفلتٍ مُلتحمٍ، يصافحون في خيامك حاضرَهم مصافحاتٍ تتكسَّر فيها الأنامل، ويتعانقون عناقاً يوجعُ الأرضَ، ساهرين على الليل النعسان، الذي لم يعد في مُستطاعه أن يقلِّبَ أوراقَ النهار بين يديه.

قلْ لهم ان يُغمضوا الحياةَ على عيونهم كي ترى الحياةَ، أيها الموت. قُلْ لدرّاجاتك أن تعبر صامتةً براكبيها اللاهثين. قلْ لشاحنتك الصغيرة ما يقوله سائقٌ لشاحنته الصغيرة أيها الموت، وأَطْرِقْ برأسك كَمَنْ يُصغي إلى نميمة الذهب، ووشايةِ الحديد.

لا نكبةَ تمَسُّ مَنْ يشرفُ عليك بجراحٍ عادلةٍ، أيها الموت.
لكنني آسى لنكبـة المساء المفتون باليقظانين، يشحذون النهارَ كالمُدى على حَجرٍ نسيه الموتُ في خَلائك أيها الموت. وآسى لديْكِنـا يصيحُ، ضجـرانَ، من خشوع الحديقةِ في خلائك أيها الموت. آسى إذْ أرى يدَ الهواءِ على فتوقهِ من ألمٍ، والأبديةَ تتداركُ النَّزْفَ الكبيرَ برمادها. وآسى كما تتأسّى، أيها الموت، على نكبةِ العَدَم في اعترافِ جَمَالِه.

لعبـورك عبـورُ الحيوان أيهـا المـوت. لأنفـاسـك أنفاسُ الحيوان، ولعدْلِكَ عَدْلُ الحيوان، كأنّما اخْتُطِفْتَ في صيحة الله

الأولى، لتترعرعَ في الغيهبِ المقذوف إلى الجوهر المقذوف من النّدم إلى المياه.

أتهذي كلَّما شُغِلْتُ بك؟ نداءُ اللعبة أنت، يا صرير الباب الذي افتحه صباحاً، خارجاً إلى مساكب جسدي. أتهذي وأنت تدفعُ عرباتِك الصغيرة لتنحدرَ بأطفال الشيخوخة إلى فراغك الفتيِّ؟ كلُّ عدمٍ يتهادى ببغاله إلى حنينك؛ بقطارات منسيةٍ؛ بشجيرات اللِّيف التي تتدلى منها القُرى بيضاء كشرانق الحرير. وضرباتُك ضرباتُ حدّادٍ في حَلَقةِ المكان إذْ تدوِّنُ اسماءَ النجارين يَسْحَجون الأعمدةَ النورانية للريح بمساحيج الرمل. ولا تَمَلُّ تردِّدُ أنْ خُدِعْتَ ـ أبداً ـ مُذْ كوفِئْتَ فكنتَ الموتَ أيها الموت.

لا متـاهـةَ تعـرض نَفْسهـا عليك. لا خَدَمَ يدخلون الفِناءَ المديد إليك وهم يزفرون ضَجَراً كما ينبغي على خَدَمٍ أن يدخلوا الملهاةَ بصحونهم الآجرِّيَّة، الملآى برقائق الشّحم، والكمأ، أيها المـوت. لا برازخَ تكسر أقفاصَها الرملية على حافتك. لا قناعَ عليك. لا قناعَ يُريك النعمةَ مرفوعةً على أنين المشهد. ولا غدَ لك، لأنك منذورٌ، أبداً، للذي تعرفه أيها الموت.

أَأَمْهِلتَ فأمْهَلْتَ اللهَ؟

ساعاتُك هاربةٌ فراشاتٍ من الوقتِ إلى اللون.

ودسائسُك هذه؟ أخْفِها قليلاً دسائِسَكَ الشَّجرَ؛ دسائِسَكَ النُّوْرَ المندلقَ كأحشاء حمارٍ، فأنت على صوابٍ ـ أبداً ـ بأخطاء أجسادنا، أيها الموت.

أنت على صوابٍ،

والحدائق على صوابٍ،

والخليَّةُ، التي تسردُ عليك عِظَةَ الحقيقةِ، على صوابٍ،

فاعـذرني إذا مضيتُ وأبقيتـك كجَـدٍّ من الرمل، وحيداً، تطحنُك الدورةُ التي لا تُحصى في بقائك الزائل، وينهرك الأشباحُ دَفْعاً بالمناكب، وهم يجتازون ممرّاتك الكلسيّةَ الى حَلَباتهم، في دروعٍ لا تراها أيها الموت.

لكن، الآن، ابقَ جاريَ، وأطلقْ نفيرَ شاحنتــك الصغيرة محيّياً كلّما مررتَ من الطريق الإسفلت إلى أشغالك، ليستأنسَ بك اليقينُ المهجـور، الـذي يلجم بقصـديره الـذائب سياجاتِ الحـدائق المهجـورة؛ لتستـأنسَ بك الـوحـدةُ ذاتُها، التي ترمِّم بالجصِّ تماثيلَ الغيب المركومةَ هنا، في المسافة الضيقة بين بيتنا وبيتك أيها الموت.

ابقَ جاريَ، نتبادلِ التوابلَ ذاتها التي من عظام القرش، ونتبادلِ البروقَ المعذَّبَةَ كخلودٍ؛

ابقَ جاريَ نتشاركْ في قناة المياه الواحدة،

والصحيفة الواحدة،

وعلبة التبغِ الواحدة،
والحِبرِ الجَهْمِ،
والرجاءِ الذي يؤنِّبه الوقتُ ذو الغمازتين، أبداً،
كطفلٍ كسَّرَ المبراةَ بأسنانهِ.

ابقَ جاريَ. ما عليكَ:

سأدلِّلك، أنا المُتْرَفُ، بهباتٍ تَلْزَمُك أيها الموت، كأنّما يتوسَّلُ الرجاءُ إليَّ أن أرفعَ على كتفيك سِرَاقَ اليقين، وأؤكِّدَ لك قَسَمَ العظام المسنونةِ كرماحٍ تحمي البوّابات.

سأدلِّلك خائفاً عليك ـ أنا العارفُ أنك لن تنجوَ من أحدٍ أيها الموت:

كلٌّ سينتشلك من الغرق بخطاطيف الموعد الماجن؛
كلٌّ سيمهِلُك مهْلَةً لا موتَ بعدها أيها الموت؛

كلٌّ سيقودك في الممرّات الى الحمّى، حيث يستلقي على سريرك الليلُ والنهـار معـاً، مرتجفيْنِ من صرخةِ المُعَذَّب الذي يستعيد انتحـارَ المكـان جَمـالاً بعد آخر. وستتهتَّك الينابيع في مرآتـك كعـانـاتٍ حليقـةٍ، وهي تسقيك عطشَ الينـابيع. فاكبحْ شاحنتَك الصغيرة، الملآى بصناديق الكرفْس إذْ تعبر الحُفَرَ في الشارع الإسفلت بصخبها المترجرج كَكَفلٍ. والْقِ إليَّ من نافذة بابها بالذي قايض به البرقُ عَدَمَك الذهبيَّ، أيها الموت.

كلُّ شيء أكيدٌ ببيانك، أيها الموت:

مدائحُنا،
والجيوشُ التي تتسلّى بالنَّـرْدِ حيث المـذبحـةُ على أتمِّها كَفَـرْجٍ؛ حيث الأرضُ المؤرَّقَـةُ، دون سماء، دون نَدَم، دونَ حكمـةٍ أو أنينٍ؛ ـ الأرضُ في تيهها؛ ـ الأرضُ الذاهلةُ أبداً في جَمال القرْين.

والكلُّ سَيرتُك، بعد هذا، أيها الموت، حين تَشْرُدُ ـ مُؤَرَّقاً ـ في حساب الحقيقة بأقلامك الفحمِ، دون ممحاةٍ تُعينُك على

عبور الرَّقْم إذْ يتوطّد في الفراغ المُرْضِعِ ذي الأثداء؛
كلُّهم سَيَرِثُونك، جالسينَ على العتبات التّسع يلهون بخرزِكَ المنسيِّ، وعـاجـك المنسيّ، وهم يعـاينـون بين أيديهم جلودَ خنانيصكِ التائهة في غابات الفردوس، أيها الموت.

إنْ تكُنْ حكمةً تكُنْ أنتَ،
إنْ يكُنْ هذيانٌ تكُنْ أنتَ،
إنْ يكُنْ باهٌ ينثرُ الطحينَ تكُنْ.
ألا لأحملنَّ إليك رجاءَك في خطواتٍ من اليأس أيها الموت،

ولأجمعنَّ أَمَلَك المُهَشَّمَ تحت شجرات الميموزا، وأقفالَك المُهَشَّمةَ كأنْ سَطَا عليك زائروك ـ إذْ سَكِرْتَ ـ فما أبقوا من متاعك إلاّ الجمالَ المذعور.

لأُحيِيَنَّكَ لأُنْجِدَك، ولأخْتَبِلَنَّ لتنجو.

أقاليمك ثمانيةٌ بين أنياب الضحى، أيها الموت. وأنا ألفّقُ لك التاسعَ، الذي سيدخله الآدميّ بجداله الطّاحن، يُحْيِيْهِ ما يُحْيِيْكَ إذْ تُنيرُهُ بجهْلِك المُحْيِي، وأنتما تصغيان، معاً، إلى صياح دِيكَةٍ مأجورةٍ في فجرٍ مأجور.

أأُلقي إليك زاداً مما لديك؟ حَسْبُك أن تنتظرَ الهبَةَ طاغيةً

أيهـا الموت. حَسْبُك أن تسمع عبثي وأنا أرمي نافذتَك بالباقِلاَّء والـذُّرةَ. فهاتِ سؤالَك الخجول لأخبرك كم حرَّرْتُك من جدالٍ خاسرٍ بينك وبين المشهد، وكم أخفيتُ حَرَجَك من القيامة بنقابٍ أسدَلْتُهُ على أبدِك المُستغيث.

أطفليَ أنت؟ أندائي المكتومُ في مشيئة الظاهر أنتَ؟ كبُرْنا معاً بالحنين ذاتهِ إلى وِحْشةٍ أنقى في أنينها أيها الموت؛ معاً

في خُيلاء الغبار،

في الممكن الجَسُوْر كقُبَلٍ على عَجَلٍ،

في ثرثرةِ النعمة،

في المهجور كلِّه،
في شهواتِ المهجور،
في القديمِ الصائرِ إلى قديمهِ الأبديِّ.

ذَكَرٌ؛ حنينُكَ حنينُ أنثى،
تعبُكَ تعبُ أنثى،
جرحُك جرحُ أنثى، أيها الموت،
والغبارُ الدّاهيةُ ينير لك، بمصباح الغِسْلِيْنِ، شقاءَك المُبْتَكَرَ كأثاثٍ فارهٍ في فِسْطاط المتاهات.

أحدَّثتني عنك، من قبل؟ أبُحْتَ لي أنّ الأرقَ ينتحِبُ بين يديك، وأنك ـ مثلي ـ تهذي كشكلٍ أسْلَمَ فراغَهُ للجمادِ النقّاش؟ لا أستدرجُك إلى ثرثرةٍ أيها الموت، بل أعيرُكَ النفائسَ مطحونةً في جلود الأكباش، وأريْكَ المُشْكِلَ عارضاً صفقاتِ السديمِ عليك، لنرتجلَ ـ معاً ـ قبولَنا الأكملَ بالذي يخوِّلنا أن نكون ـ أنا وأنت ـ أرَقّاً واحداً يرمِّمُ المشيئاتِ على عَجَلٍ.

كلُّ شيء على عَجلٍ:
المكانُ،
والحظوظُ،

والأبديةُ؛

كلُّها على عجلٍ،

وأنتَ كشّافُ الله أيها الموت، عَجُوْلاً تُشرفُ على المُنْتَهَبِ، وتشاكسُ المَقْدُوْر.

قُتِلْتَ،

أزعمُ أنْ قُتِلْتَ أيها الموت،

وأكاد أسمع ما يتخلخل من قضائك كغضاريفَ، ويذوب كالشّحم، لأنك تَرْقُوَةُ أبٍ تتقصقص هَلَعاً من الأبوَّةِ ذات الزَّئير الطاهر.

ومقتضى كمالِك أن يكونَ كمالٌ، أيها الخوشابُ،
ومقتضاكَ أن أكونَ، كي تذهبَ ـ نَسْخاً بعد آخر ـ في النَّكبةِ المرحةِ، تتلمَّسُ الصلصالَ ـ خَتْمَكَ المكسورَ، وزخارفَ المياه على الأعمدة، مُطَوَّقاً كرسولٍ بذئاب القرنفل وهي ترفع عُواءَ العِطْر من حناجرها الزرقاء.

أتتقدَّمُ إليك بتدوينٍ يذهِّبُهُ الإخباريون في المَنْسِكِ الأول للريح، أيها الموت؟
أتتقدَّم، مُطْرِقاً، إليكَ، أم تمتحنُ ثِقَلَك الحيَّ في اللُّغز الحيِّ؟ جيرانُك يرونك عبر سياج الحديقة المنخَفِض،

ويتهامسون، مشيريْنَ إلى شاحنتك الصغيرة، هَمْسَهم الصِّبْيانيَّ.

هذا دأبهم أيها الموت، وهذا دأبك أيها الموت، والخلافُ ـ هذا الشريكُ ـ خلافٌ على الحدائق والشاحنات. فاصْلحْ من حالـك بشكيمـةِ التعب الـذي فيك، وأصْلح التعبَ كساعاتيٍّ. وامسح عَرَقَ الوقتِ ـ مُريْدِك الأعمى وهو يؤجّجُ اللهبَ الحِجَابَ بمنفاخِ الدرّاجات.

أعْطِهِ مِنفاخاً آخر أيها الموت. عُضَّه أيها الموت. كمِّمْهُ ـ كَمِّمِ الـوقتَ مريدَك الأعمى، وأوثِقْهُ إلى شيخوخته العمياء أيها المـوت. ولا تنسَ: أنتَ مدعـوٌّ إلى البسيط، بإيمانِك الذي هو يأسُك الأقسى؛

بالكُلِّيِّ كمعجزةٍ في أسْرِها،
وبعذابِكَ عذابِ الخالد،
لأنك عريقٌ، وما تمسُّهُ عريقٌ أيها الموت؛
وعفيفٌ هذا الأرقُ الـذي نتقـاسمـه في حُلم الصَّقـر، إذْ أعـرضُ عليك أجنحـةَ الياقـوت التسعـةَ، والكمـائنَ كلَّها حيث الأسلافُ المُبْتَكَرون يحطّمون مداراتِهم في غمام المشهد.

أَمُفْتَضَحٌ، مَشُوْفٌ، أنت؟. رُدَّ عليكَ شيئاً منّي لتحتجِبَ قليلاً، فيأتَمِنكَ الظّاهرُ على عذابِهِ عذابِ الخالد.
واحتمِـلْ، بالـوحدة التي تتّكىء على ذراعك، ما يحتمله

العـاديُّ في الفَنـاءِ الأمين، إذِ الكـونُ ـ مُوْصداً بالغَلَبَةِ الأبدية ـ يُجنِّبكَ المنفى، أيها الموت.

واعـذُرِ الذهولَ يدفعُ القطيعَ الأكبَر من بهائم النُّور وسباع الباطن، كَمَا المجرّات، الى الكثيف الشهوانيِّ، بِحَمْدِ القديمِ العابرِ بتنانينه المتلألئةِ كالأفلاك، كأنما أنا وأنت، رقيقيْن، مسحنا أسرارَنا بزيت السُّمسم، ورَقَّقْنَا الذهولَ شِفَافاتٍ، أيها الموت.

«حَسَنـاً» يهمس القـرينُ الى القرين، والسَّلَفُ القَلِقُ إلى أصنامه. «حَسناً، هاكَ صباحاتِ العدم المرجانيةَ، والكنوزَ التي من ظلالٍ» يقول الفاني لأزَلِهِ المُحْتَضِر. وأنا أردّد: «حسنا»، أيها

المـوت، سأُلّجِئُـكَ إلى حنيني لتعبـرَ البـرزخَ عارياً، لا صوتَ لخطواتك، لا صوت لشاحنتك، لا صوت لليقين المتشبِّث بسياج الحديقة في فضولٍ أخرسَ، لا صوت لأسرارك، هذه، التي تتهيَّأ لمشاجراتها المعهودة؛

سأُلْجِئُكَ حين يُلْجِئُكَ كمالُك إليَّ؛

سأُحْيِيْك لأحيا في الكمال المُمَسَّدِ بشهوات الغيب؛

سأربِّتُ بيديْ على كتفـك كالمودِّع، مُشْفقاً على الوحدة التي أنْتَها، أيها الموت؛

سأتسلَّل إلى الجهـة التي لا خصـومـةَ فيهـا عليك، وأنـا أستودعك اليأسَ كلَّه،

واليقينَ كلَّهُ،
والعبثَ كلَّه،
والحبرَ،
والفروقَ النَّهمَةَ،
والموازينَ،
والخفيَّ التائهَ،
والنبوءاتِ؛

سأستودعُك الموتَ أيها الموت، في المشهد الممسك بالأفق ـ نزيفِكَ الصامتِ، حيث يسلخ العاديُّ المكانَ كالجُزَّةِ بسكِّيْنِهِ. سأستودعك مبنى البلدية الذي ينتصب امامه الذئبُ في

هيئتهِ الإسمنتِ (ذئبُ المبنى ذي المداخل السبعة)، وترتفع على جانبيه مقـايضاتُ الدَّمِ في كسَلِهِ اليونانيِّ، هنا، على الشاطىء التائهِ في ممَّرات البحر.

أتسمعُ رافعاتِ الحديد معي؟
أتسمع القويَّ مُلْهَماً بسخاءِ المِحْنةِ يرتِّبُ التصانيفَ؟

لا عليكَ،
هباتٌ كلُّها،
والوحدة تَسُكُّ دِرْهَمَها، أيها الموت.

نيقوسيا
١٩٩٢

الأَقْفَال

(مقالة في خواصِّ الظَّاهر)

مُهشَّمةً أفرانُ الخزَّافيْنَ.
مُهَشَّمٌ هذا البوقُ النورانيُّ،
فَلأيِّ يستغيثُ قلبُكَ بالأعمدةِ،
وعيناكَ تستغيثان بمنازلِ السَّديمِ وأبوابها الذهبيَّةْ؟

المعاني مائلةٌ عليك تؤوِّلُها تأويلَ الماء، لتستقيمَ ضاحكةً في فراغها،

واليأسُ - إسكافيُّكَ الحَرِدُ يشدُّ بخيطهِ القويِّ مِزَقَكَ التي يتناهشُها المكانُ؛

وعليك ما على الحُمَّى من نَقْشٍ ؛
عليك قُبَلُ النهايةِ التي غطَّيتَها بثيابك كي تَلِدَك النهاية .
ففيم ترفعُ اليقينَ البهلولَ على كتفيكَ تحثُّه أن يرى المُعْضلةَ هناك ، في السُّرادقِ الكبيرِ للألم ، هائجةً تلتهمُ أحناشَها؟

ظلُّك حزينٌ ؛
عظامُك حزينةٌ .

والرحيلُ الأكثر مديحاً يمزِّقُ بين يديك أملَ الكلمات ، مُنْشَدِهاً بإصغائك إليه كأنَّك تُعِيْنُه على مديحٍ أخير .

وبـإيماءاتٍ مقذوفةٍ كنُوى الكرَزِ تعبر البهوَ ذاتَه، الذي تتقافزُ التصاويرُ من رُخامِه، حيَّةً، تعيدُ إليكَ الظلامَ التائهَ، المجلجلَ بخلاخيلِه الكبيرةِ على صَدْرِ ثورِ نيسانَ، ويعيدُ الفلكيّونَ نمورَهم إلى الحدائقِ التي تتبادَلُ مكائدَها القمريَّةَ في ندائِك القمريِّ.

بإيماءاتٍ كأقدارِ التَّائهِ تُلْهِمُ التماثيلَ التي من جِصٍّ أن تفتحَ الجدارَ
لتلمحَ قلبك يُهْدي الظلامَ إلى أَلَقِهِ؛
الظلامَ المُتْرَفَ،
المُحْبِي،
شقيقَ الخُدعةِ الأكثر كمالاً؛

الظلامَ ذاك، المدقِّقَ في الأرقام الكبيرة التي تُوْحَى، مختزلةً، إلى البياضِ العاكفِ بأقلامهِ على لوحِ المعماريِّيْن.
لتلمحَ الظلامَ الذي بِخَيْرٍ كالمدْيةِ يجزُّ فِراءَ الكون.

أظلُّكَ حزينٌ؛ أعظامُك حزينةٌ؟
هَبْ أنك أغويتَ كلَّ شَكْلٍ،
ولَمَمْتَ بمنكاشِ النهارِ الحديديِّ أعضاءَ الليل المبعثرةَ على سريرك؛

هَبْ شقَقْت المعـاني من تلابيبهـا، ودفعتَ الغـدَ، خلْسَـةً،

بيديك ليتهاوى على الأدراجِ المنحدرةِ، الى كمائنها؛

هَبْ جمعتَ إليك المـذعـوريْنَ ليقتسِمـوا رئتيْكَ اللتين من حريقٍ، وطَحَنْتَ الأزلَ في أَجْـرانِ المجـرَّاتِ، مُقْتَـدراً باقتـدارِ الحُمّى ذاتها، المنزلقةِ بدلافينها الصلصاليةِ إلى الحبرِ؛ ـ هَبْ هذا:

لن تَظُنَّنَّ رجاءَك إلاَّ نَسْخاً من رَقيمْ الفراغِ الجابي.
فَأَعِدَّ، أيها المُطَوَّقُ، مجازاتِ الشَّكْل لينجوَ اللونُ،

ومَوِّهْ خندقَ النُّورِ بِشِباكٍ من ظلال القَيَّافين،

ثم دحــرجِ الخـرزةَ ذات الحِـرْزِ على لوحِ الهـاويةِ، حيث النشـآتُ النـائمـةُ في شِفـافاتِ اليقين الكبرى حالمةٌ ببراثنَ من نحاسٍ، ففي يأْسِكَ نجاةُ الأكيدِ، وفي انشغالك عن الأقْدارِ تُشْغِلُ الأقدارَ بوَساوِسها.

وإنْ تَحَيَّنْتَ صُعوداً بخوذةِ الموتِ الى المأدبةِ أَفْلِتْ من يديك حصىً جمعتَهُ صقيلاً من متاهاتِ الأعمارِ، وزَرِّرْ سُترةَ الظّاهرِ التي عليكَ، من عنقك حتى هياكلِ الأبدِ العاريةِ، لأنك ـ الآن ـ مُهْدَى من أُمـومـةٍ إلى أخـرى، في النعمـةِ التي تتـدبَّرُ للهباءِ استدلالَهُ وأسانيْدَهُ، وترفعُكَ في البزوغِ الدمويِّ إلى عويلِ الحُصون؛

لأنك مُعْضِلٌ تُسْتَوْحى بالخلافِ الذي فيكَ. إيْهِ:
لقد فُدِيْتَ بفَجْرٍ كالمبراةِ، وبِهَتْكٍ كثيرٍ.

أَيُلْهيكَ رحيلٌ، والراحلون يستوفونَ المقاديرَ بعلاماتٍ من ملحٍ، أيها الطليقُ؟

يُؤتى إرْثُكَ من جهةِ الدَّويِّ؛
يُؤتى إرثُ الغريبِ من جهةِ الدويِّ، أيها الطليقُ،
فانْسَ أنك جَسَارةٌ حين الجَسارةُ ذُعرٌ يُرَمِّمُ الأقدارَ،
وتفكَّرْ كما يقظةٌ تتماوجُ في لهاثِ الأحناشِ، لأنَّ المياهَ هَلِعَةٌ،

والجمادُ ينحتُ سَكِيْنَتَهُ بآلاتٍ كهمسِ المشَّائِيْن.

ثمَّ دحرجِ الخرزةَ ذات الوساوسِ الكريمة على اللَّوح:
إنَّها الشهواتُ تنقرُ بأناملَ رشيقةٍ على عَتَلَةِ ميزانها؛
إنه الحاضرُ المقرونُ في سلاسلهِ المرجانيةِ يتصيَّدُ جدالَ الغرقى،

وكأضلاعِ الفيل تتوازى المجازرُ، صاخبةً، تقرعُ بملاعقها الصِّحافَ المليئةَ بالأرزِّ، حيث تطفو على شَفَقِ الرؤيا غماماتٌ من السَّمْنِ، والخليقةُ تنفخُ بأفواهها الجليديَّةِ على حساءِ الأبد.

مُلْهَمٌ أنتَ، أيُّها الطليقُ كرحيلٍ،
ويُؤتى غدُكَ من الهاوية؛
مُلْهَمٌ، يُرْمى ظلُّكَ بقبعاتِ المَرَحِ،
وتُوَلَّى أقفالَ الحظوظِ كلَّها، والمفاتيحَ التي من خواتيمَ مُقْفَلَةٍ.

هيَّا:

العارفون يحملون في جيوبِ معاطفهم كستناءَ الحريق،
والحياةُ كي تُرَتَّقَ بِسُيُوْرٍ من أحشاءِ الغَيْلَم، لا أنْ تُحْتَمَلَ.

هيَّا:

نامـوسٌ يُهْـدَى في تُوْبالِ الحديدِ، فَتُسْتَوْلَدُ عتيقاً من طالعِ النَّشْأَةِ، سهرُكَ سَهَرُ المكانِ؛ أَلَمُكَ مُرْسَلٌ كحنينِ الملوك. وبكَ نجوى المُشْكِلِ تتقصَّى المكاشفاتِ إلى مَهَبِّها.

فأعِـدَّ الـوليمـةَ من أخلاطِ الزئبقِ ونِفَاسِ الرمل، كي تحضرَ الوحشةُ مُتْرَفَةً في أصفادِ الجوهرِ. واحْكِ ما تشاءُ من فروقِ الخفيِّ فالمسـاءُ في خيرٍ، والليلُ في خيرٍ، والفجرُ في خيرٍ، والصباحُ، والظهيرةُ، ومِلَلُ الشَّفقِ كلُّها في خيرٍ يشقُّ بمديتهِ الأزلَ من ثَدْيَيْه.

أَعِـدَّ الوليمةَ كما يليقُ بأسرارٍ أن تُعَدَّ، وانثرْ للحقيقةِ السارحةِ

خلف الثيرانِ برسيمَها،

فأنت مُؤتَمَنٌ في معـاقـلِ الـظَّاهرِ، وألَمُك البستانيُّ يستدرجُ الحـدائقَ إليكَ، حيث الخفيُّ يتمـاوج، كعنقِ النَّعامِ، من فوق السور ذي الحجرِ المرصود.

وتَكَتَّمْ على المُعْلَنِ:

«لا يابسةَ تنتظرُ أحداً،

لا هواءَ ينتظرُ، أيها الغارقون».

بمنجنيقـاتٍ طاهرةٍ يدكُّ الإرثُ قلاعَ الوقتِ، وفَلَكاً بعد فَلَكٍ

يتهدَّلُ السِّرُّ المُوْحى ؛

جحيماً بعد أخرى تقضمُ المجازاتُ رغيفَها الباردَ،
والراحلون لا يحزمون للنهاية إلاَّ قرائِنَها، كأنَّهم ينحتونَ نُصْبَ المكانِ من مياهٍ ليحتكموا إلى الحريق.

لا. لا تَتَكَتَّمَنَّ على المُعْلَنِ:

«ايها الراحلون خذوا نداءَكم.
أيها الغرقى خذوا الأكيدَ الذي لم تحتملْهُ النُّبوءةُ».
بمنجنيقاتٍ يدكُّ البهاءُ مَرْسى فُلْكِهِ،

وبأيدٍ كحريرِ الأغاني تخنقُ المعجزةُ دهاقِنَتَها،
فهلاَّ تعافى المُعْضِلُ أكثر ليُهْدي وُلاَتَهُ قِطافَ الحُمى؟،
هلاَّ انْتُـدِبَ القناصون على مشارفِ الصباحاتِ كلِّها، تعضُّ
ظلالُهمُ المشيئةَ بأسنانِ أيلولَ الكاهن؟

يا للمعاتباتِ:
كما هدايةٍ؛ ـ
كما لو انَّ العاصفةَ هكذا؛
كما مَا يُكوَّرُ من خَزَفٍ؛ ـ
يُغَرِّرُ الأملُ بالموازين،

وهو يطعمُ الهُوْلَةَ كَبِدَهُ السُّكَّريّ.

أمَّا الحياةُ فليْسَتْ لِتُحْتَمَلَ، بل تُعْصى.

وما أنتَ، على أيَّةٍ، لِيُضْمِرَكَ الظاهرُ. تورياتٌ تخيطُ جَرَمَكَ المُقْتَسَمَ. هيكلٌ هكذا. أبداً صَيْفٌ ـ تضربُ حيتانُ القيظِ فيكَ شِعـابَ النبوءةِ بأذيالها. ولئنْ كُشِفْتَ، في امتنانِ الظاهرِ لِعَرَضِهِ المُحْيي، كانت السهولُ حديثَكَ الخافتَ، والمغاورُ ذئابَكَ النبيلةَ إلى الحياة. لئنْ بَسَـطْتَ نسيجَـك بَسَطْتَ للتورياتِ منابتها في الرسوم مُطَرَّزَةً كالخَلْقِ يشقُّها التِّنينُ الصَّلصاليُّ هارباً.

رسومٌ جريحةٌ كلُّها، مُوَثَّقَةٌ بأليافٍ من خيال الكمثرى، وعَضَلٍ كفُجورِ التين؛

رسومٌ صَلْبَةٌ على أبواقِ المياهِ؛ ـ المياهِ الغريقةِ في ندائها.

فلا تتمهَّلَنَّ، بَعْدُ، في التدبير تُدَوِّمُ كيعسوبِ المُطْلق. فَكِّكِ الألةَ النورانيةَ، وافتحْ لِضباعِ المجرَّةِ الثالثة بواباتِ الهيكل: «لقد خُدِعَ الوقتُ، و الحبرُ يتجاهلُ انتحارَ سطورِهِ»، قُلْها، ريثما توقظُ بروقُ القُنَّبِ، وحدها، تحت خوذةِ النباتِ، عقاربَكَ الفضيةَ التي تتغذى بنقوشِ الدُّروع.

وبِلَهْوٍ يبتكرُ الحاضرَ نعسانَ لا يهتدي إلى مصبَّاتِهِ؛

بهرطقةٍ من نُوْرٍ فَلْتَصُغِ التحيةَ كلَّ صباح، وأنت تصغي إلى عراكٍ في الريحِ، وتمسحُ بشحوبِ عُمرِكَ كَدَماتٍ على عَضَل الغيم.

لا أنتَ راحلٌ،
لا الراحلون راحلون:
إنها المسافةُ رَضِيْعٌ بَعْدُ،
والتيهُ حاضِنَتُهُ الآسيَةُ.

لا.

ينهضُ الغبـارُ بِدُعـاءٍ مغسـولٍ أمـام قلبـك، فيما تجرُّ أثاثَ الحقيقـةِ خارجـاً ليعـود الخـلاءُ الى يقظتهْ. وتنزعُ التصاويرَ عن الجدران، قاذفاً حقائبَ الغد من الشرفة إلى ماضيهِ: «القيامةُ تُهْدَى بخيارٍ» تقولُ، «والموتى لا يومئون، بل يُصافِحون»، كأنَّكَ مُمْتَنٌّ لِهَـذْرِ الحكمـةِ، وأنت ترى مُحَـطِّمي أضـلاعٍ وتَرْقواتٍ يقودون العراكَ إلى اللَّانهاية.

يا لمُعاتباتِ المعنى:

فَنَاءٌ يُعَوَّضُ بِفَنَاءٍ،
وصريرٌ عادلٌ ينبعث، عالياً، من مصاريعِ البيانِ العادل،
والسياقاتُ باردةٌ كجدالٍ،
فلا تَتَمَنَّ للظاهر فَتْكاً أكثرَ، مُذْ عوَّلْتَ على النهايةِ أن تعيدَ إليكَ كَمَأَتَكَ التي تختزنُ مَنِيَّ الرعد؛

لا تتمنَّ للموت جَسَارةً أكثر، فالقتلى نادمون، وهم يخرجون من الأغاني ضارعيْنَ إلى الحياة أن تتريثَ في انتصاراتها الفاحشةِ؛ ضارعيْنَ إلى الهلاكِ المُحْيي، أبعدَ مِنْ غَدِ القَتْلِ، لأنهم سائرون ـ مثلك ـ إلى المديحِ الذي يحزُّ بأنيابهِ القويَّةِ وَرِيْدَهُ القويَّ.

أَغُنْمٌ أبهى؟ :
بُشرى دُعاباتٍ من الشرق إلى الشرق؛
مكانسٌ ذَهَبٌ، ذَبْحٌ ذهبيٌّ،
والأمل معتكفٌ في مِحْرابٍ من شَحْم الوَرَلِ .

هِيْهِ . .

ليتَكَ ادَّخرتَ عذاباً أنقى للسنين تتجرَّدُ، الآن، من حظوظِها، ضَهْيَاواتٍ لا تُرْضِعُ، أوْ أكرَمْتَ الوَجَعَ كَأبٍ. حريصاً على الخسارة تُعِيْرُ الغيبَ المارِقَ صحونَكَ، وملاعقَكَ، وصَحْوتَكَ بعد

قيلولةٍ كقفزةِ النّمْسِ . هِيْهِ :

ندىً ساخرٌ على العشبِ بين حجارةِ الممشى ،
والسماءُ منكبَّةٌ على نَهْشِ السَّلْجَم .

فلا يذرفنَّ العنبُ حنينكَ ، لأنك جالسٌ إلى المائدِة ذاتها ، التي تشهقُ أمامها المعجزةُ ـ هذهِ الباقلاّءُ المُمَلَّحةُ . لا يذرفنَّكَ الرحيلُ من عينيه يواقيتَ ذائبةً . أنتَ ما أنتَ ، عنوةً يغدقُ اليقينُ عليكَ بهاءَ اليأسِ ، كي تُعَمِّمَ ـ بجهالةِ المرئيِّ ـ فتوى السَّيْكَرَان .

أسفيذاجُ شهواتُكَ ؛

حريقٌ في كلِّ مُدْرَكٍ،

والنـداءُ، الـذي يرمي وسـائـدَ الغيب إلى الفـردوس، يطرقُ السطورَ عليكَ، كأنّكَ سَيَّافُ الحِبْرِ بالَغْتَ في الأكيدِ حتى تقطَّعتِ الوشيعةُ شتّى بين الأشكالِ، ومَزَّقَ الوقتُ سراويْلَه الكتّانية.

ويطرقُ الجمادُ عليك، أيضاً، برازخَ الهولِ: «عِمْتَ يقيناً»، فَتُهْرَقُ: «لا قَسَمَ الآنَ. هَرِمَتِ البَيْعةُ، والألمُ ليس على ما يرام».

يا لَلْألمِ ـ شفيعِ المحنةِ العذبةِ؛
يا لَشَقيقاتِهِ!

يا لَلْجمالِ البهلولِ :
سَطْوٌ يُعيدُ الخفيَّ إلى صوابِهِ،
والجهالةُ تَسْتَظْهِرُ آياتِها.

فَأَوْثِقَنَّ ما يُسْتَوْثَقُ، وأَرْجىء أن تدفع حَيْدَ الشفق إلى أيدي القَيَّافيْنَ: إنَّ الذي عليكَ سياقُ الظاهرِ: «لن يصلَ أحدٌ إلى أحدٍ». والكمائنُ تَتَشَكَّى: «حِيْلَةٌ بَبَّغاءُ». قاااااس هذا؛ . .

«يا المْكانُ تَرَوَّ»:
إنّه الألمُ الهدايةُ ـ الميثاقُ الكلِّيُّ،

الساهرُ كالملل على النَّشْأةِ الكُلِّيَّة ـ

يعينك، بسراجِ الزيتِ، أن تعبر بَهْوَ الغرقى وهم يصْقلونَ الألواحَ البازلتيةَ، قابضين بعظامهم الباذخةِ على المجاذيف.

إنَّه الألمُ، أيها الطليقُ ؛ ـ

الألمُ المواسي، الذي ـ كنسيانٍ ـ يروِّضُ الشَّكَّ ؛ أمْ تُراكَ غَرَّزْتَ بالمتاهةِ فاوَدْتها، واعترفتَ: «لا طريقَ إلى مكانٍ»؟

جذورُكَ الظلالُ، أيها الطليقُ كالعُشبِ،

والأرضُ حجرٌ.

استطرادٌ في سياقٍ مُخْتَزَل

١

إنها البراهينُ الحمّى ،
وأنتَ تظلِّلها بالحبرِ من تهتُّكِ اليقين ،
وتُوْقِعُ بالكلماتِ لتغفوَ البراهينُ على شِجارها .

لا دِيَكَةَ هنا ،
لكنها أَعرافُ النارِ المتمايلةُ كأعرافِ الدِّيَكة ،
والوجودُ المارقُ يروِّعُ السياقَ المكنونَ للظُّهُوْراتْ .

لا بلاءَ هنا إلّا من وَرْدٍ،
لا مِزْراقَ طائشاً إلَّا مِزْراق الكونْ؛
والبرقُ زِرايةُ الليلِ بالمكان، ثمَّ، والمياهُ هُزْوٌ،
فمالَكَ تتلقَّفُ المشيئاتِ بشعاعٍ منكوبٍ،
وتُغْدِقُ على الألمِ إيمانَ المساء؟

٢

مرحى أيها الرِّهانُ المغلولُ:
ها العَدَمُ، نازفاً، يَتَبَسَّمُ لَأحفادِهِ.

أَمَلُكَ أَمَلُهُ؛
كلاهما نعسانُ في الدفءِ الذي يُمْتَدَحُ.
وتُهْدَرانِ فيجمعكما اليقطينُ،
كأنَّ مجازاتِكما غرورُ الشعاعِ الأكملِ في سِفاحِه.

٤

الطُّرُقُ اجاصٌ على شجرات الصباح.
فإنْ هَرْوَلَ المكانُ، مُتَرَيِّضاً، هَرْوِلْ أيضاً:
أمامكما درّاجاتُ الأزلِ،
وعلى أكتافكما أكياسُهُ الفارغةْ.

كي يَشْهَقَ التَّرَفُ؛ كي يكونَ العَدَمُ أنقى:
لهذا تخونُ النُّوْرَ،
مُصْغياً إلى مَشَادَّاتِ النُّعْمَى فوقَ أدراجها.

٦

أَعْطِها قُبَلَكَ،
شقيَّةً لا تهتدي إلى حريقها.
أعْطِها الوقتَ، الذي ضارعاً يؤكِّدُ ليديكَ أنَّهُ المُعَذَّبُ.

٧

لا نُكرانَ،

والحياةُ رقْمُكَ المستور.

٨

أُفُقٌ هذا؛

أُفقٌ ذاكَ:

كلاهما عانةُ الريح .

٩

معاً:
أنتَ، مُخْتَلَساً من قرائنكَ الأُخرى،
والقديمُ النَّاضجُ في خَلِّهِ القديم.

١٠

عاد الحجَّامون.

الإوزُّ غاضبٌ، والرياحُ تتخبَّطُ مسدودةَ الغلاصم،

فلا تلبثنَّ في الفَـزَعِ الأنيقِ، هكـذا، تُدَحـرجُ الفراغَ خصيةً خصيةً على الجُسُوْر، وترمي من صدوعِ الأبديَّةِ خواتيمكَ الأبديَّة.

ولا يكوننَّ لك عنادُ القطيعةِ؛

لا يكوننَّ للقطيعة في يديك وَبَرُ اليُرْبوعِ:

هيَ ذي السيوفُ المغسولة كلُّها بمنيِّ الموتى،
والأقحافُ التي تتكسَّرُ، في خِفَّةٍ، تحت نَفْخِ العطَّارين.
هيَ ذي الألسُنُ،

الأحاليلُ،
الكُلَى،
الأكبادُ،
الرَّضْفاتُ القاسيةُ،

في سياقٍ من النُّورِ مثل حوافرِ البَغْل،

والأَمَمُ ـ مَحْلُوْجةً ـ تتناثرُ فوقَ العاناتِ الكثيفةِ لِلْهَول.

وقطارٌ واحدٌ،
مُنحدراً من بحيرةِ «وانْ» إلى الإسكندرونة،
يحمـل في مقطورتِهِ الثامنة قلبَ «شمدين» الضاحك لكَوْجَر الغيم، الذي، مَرِحاً، يتمرَّغُ فوق أرضِ «بوطان» والبحار الغريقة.

الجهاتُ تتقوَّضُ، صامتةً، كصناديق البَنْجَر،

والغضبُ ـ فَتَـاكَ الضاحكُ لا يتعثَّرُ قطُّ. رشيقاً ينهب أسواقَ الأسلافِ بكؤوس الشاي، ويجرُّ حوانيتَ البقَّالين، كماعزٍ، إلى مسالخ النُّوْر.

١١

الشَّفَقُ رغيفُكَ في جهاتِ «موزانْ»،
والغيومُ طبولٌ.

١٢

المكانُ طَلْقَةُ الخيالِ التي تُرْدِيْكَ،
لتتعافى حُرَّاً، حيثُ المتاهُ رَجَاءُ،
والكونُ يغطّي بأسماله نوارجَ اليقين؛
حيثُ الحروبُ، نقيَّةً كفراء السنجابِ، تتماوجُ في الهبوب
الرَّحيم للجَدَلِ، ويتأَهَّبُ العَدَمُ ـ هذا الجناحُ الأقوى.

الكُرْدُ هناكَ،
في دويِّ الطَّلْقَةِ التي تُرْدِيْكَ لتتعافى.

المحتويات

٧
تصانيف النّهب

٥٣
الأقفال

٨٣
استطرادٌ في سياقٍ مُخْتزل

المطابع التعاونية الصحفية ش م ل، بيروت
شباط ١٩٩٦

يجمع الشاعر والروائي سليم بركات في هذا الكتاب بين الشعر والسرد ليصل الى صيغة جديدة تنفتح على اللحظة الشعريّة مقدار ما ترقى الى مصاف الغنائيّة الصافية. وكعادته، ينجح بركات في تكثيف لغته المميّزة ليطلّ، عبرها، على فضاء الماضي والحاضر حرّاً طليقاً، مغامراً بجرأة.

والنصوص الشعريّة التي يضمّها هذا الكتاب تسعى الى بلورة تجربته الفريدة التي تُعتبر من التجارب الأدبيّة البارزة في العالم العربي.